العذر بالجهل

عقيدة السلف

مع

توضيح وبيان لموقف شيخي الإسلام
ابن تيمية وابن عبد الوهاب من
العذر بالجهل وتكفير المعين

بقلم
شريف محمد فؤاد هزاع
عفا الله عنه وغفر له

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة ت: ٨٦٤٢٤٠

وقال فى النهاية : وأصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء . (١) .

يقول ابن الوزير رحمه الله :

واعلم أن أصل الكفر هو التكذيب المتعمد لشىء من كتب الله تعالى المعلومة أو لأحد من رسله عليهم السلام أو لشىء مما جاؤا به إذا كان ذلك الأمر المكذب به معلوماً بالضرورة من الدين . ولا خلاف أن هذا القدر كفر ومن صدر عنه فهو كافر إذا كان مكلفاً مختاراً غير مختل العقل ولا مكره .

وكذلك لا خلاف فى كفر من جحد ذلك المعلوم بالضرورة للجميع وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأوياله كالملاحدة فى تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروى من البعث والقيامة والجنة والنار .

وإنما يقع الإشكال فى تكفير من قام بأركان الإسلام الخمسة المنصوص على إسلام من قام بها إذا خالف المعلوم بالضرورة للبعض أو للأكثر لا المعلوم له وتأول وعلمنا من قرائن أحواله أنه ما قصد التكذيب أو التبس علينا فى حقه وأظهر التدين والتصديق بجميع الأنبياء والكتب الربانية مع الخطأ الفاحش فى الاعتقاد ومضادة الأدلة الجلية عقلا وسمعاً ولكن لم يبلغ مرتبة الزنادقة المقدمة وهؤلاء كالمجبرة الخلص المعروفين بالجهمية عند المحققين وكذلك المجسمة المشبهة فى الذات التشبيه المجمع على أنه تشبيه احترازاً عما لا نقص فيه مجمع على أنه نقص مع إثبات

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٤ / ٢٥٥) .

الربوبية وخواصها وجميع صفات الكمال وإلا كان كفراً صريحاً . أ هـ بلفظه (١) . يدعون أن الله متحد بخلقه أو ببعض خلقه أو حال في خلقه أو في بعض خلقه ومن اعتقد ذلك كفر بإجماع المسلمين وكذلك من دعا غير الله أو ذبح لغير الله أو نذر لغير الله واعتقد فيه القدرة على الضر والنفع والإعطاء والمنع فهو كافر بإجماع المسلمين لكن لا يستباح دمه إلا بعد الدعوة والبيان وذلك

وللعلامة صديق حسن خان كلام نفيس في أن المتأول لا يكون أبداً كالمرتد فيقول رحمه الله : وأما قول بعض أهل العلم أن المتأول كالمرتد فههنا تسكب العبرات ويناح على الإسلام وأهله بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر لا بسنة ولا قرآن ولا لبيان من الله ولا لبرهان بل لما غلت مراجل العصبية في الدين وتمكن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين لفهم الزمان بعضهم لبعض بما هو شبيه الهباء في الهواء والسراب في البقيعة فيا لله وللمسلمين من هذه الفاقرة (٢) التي هي أعظم فواقر الدين والرزية التي ما رزي بمثلها سبيل المؤمنين وأنت إن بقي فيك نصيب من عقل وبقية من مراقبة الله عز وجل وحصة من الغيرة الإسلامية علمت وعلم كل من له علم بهذا الدين أن النبي لما سئل عن الإسلام قال في بيان حقيقته وإيضاح مفهومه أنه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والأحاديث بهذا المعنى متواترة فمن جاء بهذه الأركان الخمسة وقام بها حق القيام فهو المسلم على رغم أنف من أبى ذلك كائناً من كان فمن جاءك بما يخالف هذا من ساقط القول وزائف العلم بالجهل فاضرب به في وجهه وقل له قد تقدم هذيانك هذا برهان محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

---

(١) كتاب إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص ٤١٥) .

(٢) الفاقرة : الداهية التي تكسر الظهر .

وكما أنه تقدم الحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قام بهذه الأركان الخمسة بالإسلام فقد حكم لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره بالإيمان وهذا منقول عنه نقلا متواتراً فمن كان هكذا فهو المؤمن حقاً وقد ورد من الأدلة المشتملة على الترهيب العظيم من تكفير المسلمين والأدلة الدالة على وجوب صيانة عرض المسلم واحترامه ما يدل بفحوى الخطاب على تجنب القدح فى دينه بأى قادح فكيف بإخراجه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفرية فإن هذه جناية لا تعدلها جناية وجرأة لا تماثلها جرأة ، وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه فى الصحيح أيضاً (المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه) ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه فى الصحيح أيضاً (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام) وهو أيضاً فى الصحيح وكم يعد العاد من الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية والهداية بيد الله عز وجل :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ) ا.هـ بلفظه (١) .

وهل يظهر من كلام القنوجي رحمه الله أنه يقصد بهذا الرد الذي يقدم على التكفير بدون دليل ولكن المخالفة في الرأي أو في جزئيات العقيدة وهذا لا يفعله إلا جاهل بالشرع

(١) الروضة الندية (٢ / ٢٩٠ – ٢٩١) .

أولا ـ الأدلة القرآنية

١ ـ قول الله تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(١) .

بيان للعناية الربانية ، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته ، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها.

أى وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة ، أن نعذب قوماً حتى نبعث إليهم رسولا يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال. **لإقامة الحجة قطعاً للعذر . والعذاب أعم من الدنيوى والأخروى،**

لقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوْا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَ وَنَخْزَى) [طه : ١٣٤] وقال تعالى (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) [الملك : ٨ ـ ٩] ، وكذا قوله : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ) [الزمر : ٧١] وقال تعالى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم

---

(١) سورة الإسراء (١٥) .

مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قوماً عذاب استئصال ولا يدخل أحد النار إلا بعد إرسال الرسل .

قال قتادة : إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة ولا يعذب أحداً إلا بذنبه ا . هـ (١) .

يقول الإمام الشوكانى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لما ذكر سبحانه إختصاص المهتدى بهدايته والضال بضلاله . وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره ، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه.

فيبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم .

والظاهر أنه لا يعذبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل . أ . هـ (٢) .

ويقول الإمام ابن كثير : إخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل إليه .

كقوله تعالى (كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى (١٠ / ٣٩١٣) .

(٢) فتح القدير للشوكانى (٣ / ٢١٤) .

من السماء: أنّا إنما قلنا ذلك وسألناك أن تسأل لنا ربك لنأكل من المائدة فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) يقول وتستكن قلوبنا وتستقر على وحدانيته وقدرته على ما شاء وأراد(وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

ونعلم أنك لم تكذبنا فى خبرك أنك لله رسول مرسل ونبى مبعوث (وَنَكُونَ عَلَيْهَا) يقول ونكون على المائدة (مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ) يقول ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه علينا فى توحيده وقدرته على ما شاء وعلى صدقك فى نبوتك . ا.هـ(١)

قلت : تبين لك بعد هذا النقل عن شيخ المفسرين أن الحواريين — قبل استحكام الإيمان فى قلوبهم — أو من كان معهم من الجهال(٢) — شكوا فى قدرة الله تعالى وفى صدق نبيهم عيسى عليه السلام وكلاهما كفر بالله . ولم يكفرهم عيسى عليه السلام بتلك المقالة وإن كان استعظمها وأمرهم بمراجعة إيمانهم وكذا لم يخبر الله تعالى أنهم كفروا كما ذكر ذلك فى الذين استهزءوا بعد تفسير كلمة المائدة فى غزوة تبوك .

فقال عز وجل (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) .

وهذا يدل على أن قول الحواريين الذى قالوه وهو شكهم فى قدرة الله تعالى لم يكن كفراً منهم إذ قالوه وهم جاهلون بذلك مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يعذر العبد بجهله فى الأصول والفروع فى الاعتقادات والعبادات

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى (٧/ ٨٣ — ٨٥) .

(٢) ويرى بعض المعاصرين أن القول بأن ذلك كان ممن كان مع الحواريين يخالف نص القرآن إذ قال الله تعالى (إذا قال الحواريون) وهو نص صريح وإنما ذكرت ذلك تبعاً للإمام القرطبى وإن كان لا يبعد أن يكون من الحواريين إذ جهلت عائشة صفة العلم لله سبحانه وهى من هى بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى زمن العلم وغيره وفى دولة الإسلام وغيرها وذلك – وكما سنبين إن شاء الله تعالى – أن الحواريين كانوا فى زمان عيسى عليه السلام وهو زمن العلم وعندهم من يسألونه ومع هذا لم يكفروا بقولهم وإنما ذكرهم وبين لهم أن قولهم هذا مجانب للإيمان وهذا الذى قررناه وقرره قبلنا شيخ المفسرين هو ما أكده وبينه كثير من علمائنا من المفسرين وغيرهم ولك نذكرهم :

يقول الإمام الشوكانى رحمه الله :

واستشكلت القراءة الثانية (هَلْ يَسْتَطِيعُ) بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا (آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) والسؤال عن استطاعته لذلك ينافى ما حكوه عن أنفسهم .

وأجيب : بأن هذا كان فى أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله.

ولهذا قال عيسى فى الجواب عن هذا الإستفهام الصادر منهم(١) (اتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

أى لا تشكوا فى قدرة الله . ا . هـ (٢)

ويقول الإمام الآلوسى رحمه الله :

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) :

لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه لأنهم لو حققوا وعرفوا لم يقولوا ذلك إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عز وجل . . (٣)

---

(١) يعنى قولهم (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟) .

(٢) فتح القدير للشوكانى (٢ / ٩٢) .

(٣) روح المعانى (٧ / ٥٨) .

ثم ذكر رحمه الله إختلاف العلماء فى تأويلها وذكر القراءة الأخرى ومن قرأ بها .

ويقول الإمام الفخر الرازى بعد أن حكى أوجه القراءة فى الآية (هَلْ تَسْتَطِيعَ) ، (هل يَسْتَطِيعُ) : قالوا وهذه القراءة (هَلْ تَسْتَطِيعَ) أولى من الثانية (هَلْ يَسْتَطِيعُ) لأن هذه القراءة توجب شكهم فى استطاعة عيسى ، والثانية توجب شكهم فى استطاعة الله ، ولا شك أن الأولى أولى .

وأما القراءة الثانية ففيها إشكال ، وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم (قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) وبعد الإيمان كيف يجوز أن يقال أنهم بقوا شاكين فى اقتدار الله تعالى على ذلك ، والجواب عنه من وجوه : -

الأول : أنه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم إدعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) .

فدل ذلك على أنهم كانوا شاكين متوقفين فإن هذا القول **لا** يصدر عمن كان كاملا فى الإيمان . وقالوا: **(ونعلم أن قد صدقتنا)** وهذا **يدل على مرض فى القلب .**

وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم (اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ) يدل على أنهم **ما كانوا كاملين فى الإيمان (١)** .

والوجه الثانى :

فى الجواب أنهم كانوا مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى)(٢) فإن مشاهدة مثل هذه الآية لا شك أنها تورث الطمأنينة ولهذا السبب قالوا (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) .

الوجه الثالث :

فى الجواب أن المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك هل هو جائز فى الحكمة أم لا (٣) ؟ لأن أفعال الله تعالى لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففى الموضع الذى لا يحصل فيه شىء من وجوه الحكمة يكون الفعل ممتنعاً فإن المنافى من جهة الحكمة كالمنافى من جهة القدرة . وهذا الجواب يتمشى على قول المعتزلة ، وأما على قولنا فهو محمول على أن الله تعالى قد قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ولم يعلم وقوعه كان ذلك محالا غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور .

الوجه الرابع :

قال السدى : هل يستطيع ربك أى هل يطيعك ربك إن سألته وهذا تفريغ على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة .

---

(١) والواضح أن الفخر الرازى رحمه الله يرى أن هذا الوجه أليق وأصرح لمطابقته لسياق الآيات وموافقته للأدلة الأخرى ولذا قدمه على الأوجه الأخرى والتى هى أقصر بكثير من هذا الجواب لمن تأمل .

(٢) قلت : ليس فى قولهم هذا أى مشابهة لقول الخليل عليه السلام لأنه سأل الله تعالى بقوله=

(٣) و هذا الجواب كالذى قبله لا يتمشى مع سياق الآيات الكريمة .

الوجه الخامس :

لعل المراد بالرب : هو جبريل عليه السلام ، لأنه كان يربيه ، يخصه بأنواع الإعانة ،

ولذلك قال تعالى فى أول الآية (إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) .

يعنى أنك تدعى أنه يربيك ويخصك بأنواع الكرامة ، فهل يقدر على إنزال مائدة من السماء عليك .

والوجه السادس :

أنه ليس المقصود من هذا السؤال كونهم شاكين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك فى غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول : هل يقدر السلطان على إشباع هذا ، ويكون غرضه منه أن ذلك أمر جلى واضح لا يجوز لعاقل أن يشك فيه ، فكذا ههنا . ا . هـ (١) .

قلت ، فلعل هذه هى أوجه التأويل فى هذه الآيات الكريمة والراجح ما دلت عليه الآيات ألا وهو أن ذلك كان من الحواريين قبل معرفتهم الكاملة بربهم أو ممن كان معهم من الجهال وهذا الذى قلنا عليه جمهور المفسرين ، بل تجد أحدهم كالإمام القرطبي يتحير فى تأويل تلك الآيات ثم يعود لترجيح ذلك لدلالة الآيات عليها فيقول رحمه الله :

= (رب أنى كيف تحى الموتى) فهو موقن أن الله تعالى يحيى الموتى ولكن أراد المعاينة ليزداد يقينه أما هم فسألوا شاكين (هل يستطيع ربك) وشتان بين قولهم وقول خليل الله عليه السلام . فتأمل .

(١) مفاتيح الغيب (١٢ /١٣٧) وما بعدها .

إلا أنه يجوز أن يقال : إن ذلك صدر ممن كان معهم ، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي صلى الله عليه وسلم : إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط وكما قال من قال من قوم موسى (إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

ثم ذكر القول بأن ذلك منهم كما كان سؤال إبراهيم عليه السلام للمعاينة وقال بعد ذلك :

قلت : (القائل القرطبي) وهذا تأويل حسن ، وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين . ا . هـ (١) .

وأما الإمام ابن حزم رحمه الله فقد جعل هذه الآية أبين وأوضح شيء في أن الجاهل معذور في الاعتقاديات والعمليات في الأصول والفروع فهو بعد أن ذكر كلاماً في العذر بالجهل وحديث من أوصى أهله بحرقه قال :

(قال أبومحمد) : وأبين شيء في هذا قول الله تعالى (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ) إلى قوله (وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عز وجل عليهم **قد قالوا بالجهل لعيسى عليه السلام :**

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ)

ولم يبطل بذلك إيمانهم وهذا لامخلص منه وإنما كانوا يكفرون لو قالوا ذلك بعد قيام الحجة وتبيينها لهم . ا . هـ (٢)

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن (٦ / ٣٦٤) وما بعدها .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣ / ٢٥٣) .

هذا الإطلاق باطل والعذر بالجهل إنما يقبل في الفروع إذا اختفى مدركه بقطعي يدل على ضيق مدرك العذر بالجهل كالمرأة التي أتي بها من وسط افريقيا الى المدينة حيث من عثمان فذبحت ولما أراد أن يضعوا عليها تبين أنها لم تعلم بالحرمة

وتبين كذلك تلك الآيات الكريمات أن الجهل عذر في الأصول والفروع في دار الإسلام ودار الحرب في مظنة العلم وغيرها ويأتي في كل فصل تأكيد لذلك إن شاء الله تعالى.

٣ ـ قول الله تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [التوبة : ١١٥] .

فهذا بلاغ من الله وحكم حكم به العدل أنه لا يضل أحداً حتى تقوم عليه الحجة .

يقول ابن كثير رحمه الله :

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل .

أنه لا يضل قوماً بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة .

كما قال تعالى (وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) الآية .

وقال مجاهد في قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) الآية .

قال : بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الإستغفار للمشركين خاصة وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا .

وقال ابن جرير : يقول الله تعالى : « وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا » فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم

عليكم بالضلال فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى

وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ا . هـ . (١) .

ولايحسبن أحد أن ذلك فى العمليات أو الشرعيات ، أما الاعتقادات فلا عذر هنالك لأننا سبق لنا أن نقلنا نقولا تدل الدلالة القاطعة **أن العذر بالجهل أصل شرعي معتبر** وأن الله سبحانه تمدح نفسه أنه لا يعذب أحداً حتى تقام عليه الحجة ويعاندها ، أما من فعل أو اعتقد شيئاً يخالف ماجاءت به الرسل جهلا فهو معذور بجهله مرفوع عنه التكليف وإنما يخشى عليه الإثم إن كان مفرطاً فى التعلم وسيظهر لك أخى القارئ المسلم ذلك جلياً من أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى .

يقول الشوكانى رحمه الله : لما نزلت الآية المتقدمة فى النهى عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الإستغفار ، فأنزل الله سبحانه (وما كان الله ليضل قوماً) إلخ : أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم للإسلام ، والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شىء من المحرمات **بعد أن يتبين لهم أنه محرم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به .**

ومعنى (حتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) حتى يتبين لهم ما يجب عليهم إتقاؤه من محرمات الشرع ا.هـ (٢)

ويقول الإمام النسفى رحمه الله : أى ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ /٣٩٥) .

(٢) فتح القدير (٢ /٤١٢) .

للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه **بعد بيان حظره وعلمهم بأنه واجب الإجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا .** .

وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهى ا . هـ (١) .

ويقول الإمام الآلوسى : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً)

أى ما يستقيم من لطف الله تعالى وأفضاله أن يصف قوماً بالضلال عن طريق الحق ويذمهم ويجرى عليهم أحكامه (بَعْدَ إِذْ هَدَاهُم) للإسلام (حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ) بالوحى صريحاً أو دلالة (مَا يَتَّقُونَ)

أى ما يجب إتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه ، وكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان حيث أفاد أنه ليس من لطفه تعالى أن يذم المؤمنين ويؤاخذهم فى الإستغفار قبل أن يبين أنه غير جائز لمن تحقق شركه لكنه سبحانه يذم ويؤاخذ من استغفر لهم بعد ذلك (٢) .

والآية على ما روى الحسن نزلت حين مات بعض المسلمين قبل أن تنزل الفرائض ، فقال إخوانهم : يارسول الله إخواننا الذين ماتوا قبل نزول الفرائض ما منزلتهم وكيف حالهم ؟ .

وعن مقاتل والكلبى أن قوماً قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ثم رجعوا إلى قومهم فحرمت الخمر

---

(١) تفسير النسفى (٢ /١٤٨) .

(٢) أى بعد البيان بهذه الآيات وإقامة الحجة عليهم بها .

وصرفت القبلة ولم يعلموا ذلك حتى قدموا زمان المدينة فعلموا ذلك فقالوا: يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن فى ضلال . فأنزل الله تعالى الآية . . . .

إلى أن قال :

واستدل بها على أن الغافل وهو من لم يسمع النص والدليل السمعى غير مكلف (١).

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق بعد ذكره للآية :

فقرر سبحانه وتعالى فى ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة وهى أن المؤاخذة دائما بعد العلم وهذا من فضل الله ورحمته فله الحمد ا . هـ (٢)

فإن قال قائل : أن هذه الآية إنما تتكلم عن تحريم الاستغفار للمشركين وأن هذا فى مسألة الجاهل بفرع من الفروع وأن الخلاف بيننا فى جاهل التوحيد والأصول .

فأقول وبالله التوفيق : أن الولاء والبراء من أمور العقيدة وأن من يظن أو يشك أن الله سبحانه وتعالى يغفر للمشركين فهذا كفر بالله سبحانه وتعالى وتكذيب له إذا أن الله بين فى سورة النساء بقوله :

(إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) .

فالمستغفر للمشرك إنما يستغفر له لظنه أن الله قد يغفر له وهذا مضادة للآية الكريمة وأن هذا الإستغفار منه لهم إنما يتم عن محبة لهم وهو منهى عنه

---

(١) روح المعانى (١١ /٣٩) .

(٢) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر (ص ٧٢) .

كذلك بل هو من مقاصد هذه الشريعة السمحة . ويبين ذلك قول الإمام القاسمي رحمه الله :

هذا من تتمة ما تقدم من تأكد مباينة المشركين ، والبراءة منهم ، وترك الإستغفار لهم ، وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون ودلالته إياهم على الصراط السوى فضلوا عنه ، فأضلهم الله ، واستحقوا عقابه . ا . هـ (١) .

٤ ـ قول الله تعالى (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) [النساء : ١١٥] .

فهذه الآية الكريمة كمثيلاتها من آيات القرآن وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أئمة الهدى تقرر أن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ أحداً ألا بعد أن يتبين له الحق وتقام على الحجة ثم يشاقق الحق فحينئذ يكون مستحقاً للعقاب والعذاب .

يقول الإمام الشوكاني : ـ (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ) :

المشاقة : المعاداة والمخالفة وتبين الهدى : ظهوره ، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاقة . ا . هـ (٢)

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ)

---

(١) محاسن التأويل (٨ / ٣٢٨٣) .

(٢) فتح القدير (١ / ٥١٥) .

أى ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار فى شق والشرع فى شق وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له . ا . هـ (١)

ويقول العلامة الآلوسى :

(مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنُ لَهُ الْهُدَىٰ)

أى ظهر له الحق فيما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما يدعيه عليه الصلاة والسلام بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ا . هـ (٢) .

ويقول الإمام النسفى : (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ) :

ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل وظهور الرشد ا . هـ (٣)

٥ — قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ) [سورة : طه : ١٣٤] .

فى هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أنه قطعاً لمعذرة الكفار أن يقولوا يوم القيامة هلا أرسلت إلينا رسولا يبين لنا ما تحب ويحذرنا مما تبغض من قبل أن نذل فى الدنيا ونخزى فى الآخرة بالعذاب السرمدى ، فأرسل الله

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٥٥٤) .
(٢) روح المعانى (٥ / ١٤٦) .
(٣) تفسير النسفى (١ / ٢٥١) .

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا) فى الدنيا (رسولاً) مع كتاب (فنتبع آياتك) التى جاءنا بها (مِن قبْلِ أن نَّذِلَّ) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم .

ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها فانقطعت معذرتهم

فعند ذلك قالوا (بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء) ا . هـ (١) .

ويقول الإمام القرطبى : قوله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن (لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أى هلا أرسلت إلينا رسولا (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وقرئ (نذَّلَ ونخزى) على ما لم يسم فاعله .

وروى أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهالك فى الفترة ، والمعتوه ، والمولود :

يقول الهالك فى الفترة لم يأْتنى كتاب ولا رسول - ثم تلا (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً) الآية .

ويقول المعتوه : رب لم تجعل لى عقلا أعقل به خيراً ولا شراً

ويقول المولود : رب لم أدرك العمل فترفع لهم نار فيقول لهم ردُوها

---

(١) تفسير أبى السعود على هامش تفسير الفخر الرازى (٧ /٦٧) .